تمثيل الألوان الذّهنيّة في الأفكار القرآني:
الأبيض والأسود نموذجا

الدكتور سابق ام. كي[١]
سيّاف أمين كي. سي.[٢]

ملخص

تناقش هذه الدراسة عن الطبيعة الذهنية للألوان – خصوصا الأبيض والأسود- على أساس نظرية الدلالة المعرفية، وهذه النّظرية المعاصرة يستخدمها الباحثون والعلماء في أنحاء العالم لتحليل القضايا اللغوية. وهناك الجدل الدائر حول التمثيل الثقافي والحضاري للون الأبيض والأسود، وهذه الدراسة محاولة لتحليل بعض الآيات والأحاديث حسب المبادئ العامة للنظرية الدلالة المعرفية. تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن التصوّرات الذهنية التي يتأثر بها الوعي الإنسان عند تداول العناصر اللغوية المتعلقة بالأبيض والأسود. تقدم الدراسة أوّلا المبادئ العامة الرئيسية للدلالة المعرفية وثانيا تحليل بعض الآيات والأحاديث المشتملة كلمة الأبيض والأسود.

مفاتيح الكلمات: الدلالة المعرفية، خطاطة، الصّورة، المقولة، التعدد الدلالي، الاستعارة، النموذج المعرفي المؤمثل، دلالة الأطر

مقدمة

إن المباحث والنقاشات حول تأثير الألوان في الحياة الاجتماعية وفي الخطابات اللغوية تتغير حسب مستجدات الحياة والقدرات التفكيرية وتغير الأحوال الاجتماعية. حقا أن مقتل جورج فلويد الأمريكية الجنسية التي أثارت لاحتجاجات "حياة السود مهمة –Black Lives Matter" وأدت أيضا إلى مناقشات أكاديمية عالمية، ليست هذه قضية عنصرية فقط بل تتجاوز حدودها إلى العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية

---

[١]. رئيس قسم اللغة العربية، كلّية أم. اي. أس. ممباد، كيرالا، الهند

[٢]. باحث دكتوراه، كلّية أم. اي. اس. ممباد. كيرالا، الهند

والعلم النفسي وإلى كل ألوان من العلوم. وهذه الدراسة تتركز حول كيفية معالجة القضية اللغوية المتعلقة باللون الأبيض والأسود على ضوء اللسانيات المعرفية(Cognitive Linguistic).

إن الجدال في المنصّات الأكاديمية حول قضية الألوان خصوصا – الأبيض والأسود – أثارت العديد من الأسئلة عن التصورات الذّهنية التي تختلق العناصر اللغوية العربية في الاستعمالات العامية والأدبية. هل التصوّرات الذّهنية عن لأبيض والأسود تختلف في اللغات العالمية المهمّة؟ وهل هناك أيّ نقطة مركزيّة تدور حولها هذه التصوّرات؟ وهل تؤثّر هذه على تعاملنا الثّقافي بأيّ شكل؟ وأين يقف الأدب الكلاسيكي في هذا الموضوع، خاصة القرآن الكريم والحديث الشريف؟ وهذه هي القضايا البحثية الموجهة إلى تحليل بعض المحادثات اللغوية.

استجابة لهذه الأسئلة نتجه إلى تحليل كيفية تداول القرآن والحديث تعبير اللون الأبيض والأسود والتمثيلات الذهنية والمصوّرات الإدراكية التي تشكلها الوعي الإنساني عند استخدامهما، وأحس الضرورة الماسة أن تسير الدراسة على أساس النظريات اللغوية التي اتفق عليها العلماء، وكذلك المعلومات الكافية المستدلة من المصادر الموثوقة، لذلك نعتمد على النظرية اللغوية المعاصرة وهي الدلالة المعرفية أساسا لهذه الدراسة ولتحليل بعض المحادثات اللغوية المأخوذة من القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب العربي، وقبل أن ندخل إلى المناقشة يجب علينا التفات النظر إلى السابقين بهذا العمل حسب وجهاتهم النظرية موجزا.

الاستعراض الأدبي حول الموضوع

لقد أشار الثعالبي في "فقه اللغة" إلى استعارة اللون من حيث هو اسم يدلّ على معنى معجمي بحكم الاصطلاح إلى الدلالة على معنى آخر يتصور من التركيب أو

السياق؛ كقولهم موت أحمر، وموت أسود، وعيش أخضر، وعدو أزرق.[١] وقدم ابراهيم محمود خليل في دراسته "ألفاظ الألوان ودلالتها عند العرب" تأملا دقيقا عن استخدام الألوان في التعبير المجازي والاستعاري فضلا عن التعبير الحقيقي، معتمدًا على استقراء الشعر الجاهلي، والإسلامي، واستقصاء الكنايات اللونية ومقارنتها بما يقابلها، أو يقرب منها، أو يختلف عنها في لغات أخرى، استقصاءً يضيف إلى معرفتنا بالألوان، والألفاظ الدالة عليها.[٢] وكذلك كتاب "اللغة واللون" للدكتور أحمد مختار عمر، الذي يتحدث عن الألوان ومعاييرها وعلاقتها بالمنفعة والمعتقدات والتحليل النفسي.[٣]

وهناك العديد من الدراسات عن الألوان ومدلولاتها على منظور اللغة والأدب والعلم الاجتماعي، ولكن لم يوجد أيّ دراسة تحليلية عن التصورات الذهنية التي تشكلها في أفكار الإنسان عند تداول الألوان في الخطابات النصية والمقولة في حين هذه الدراسات موفورة في اللغة الإنجليزية والفرنسية من اللغات العالمية الأخرى. وقبل أن نخوض إلى جانب التحليل يجب أن نعلم بعض المبادئ الأساسية للدلالة المعرفية حتى يساعدنا في فهم النماذج العربية والنصوص القرآنية على منظور جديد.

الدلالة المعرفية (Cognitive Semantics) المبادئ والتطبيقات

إن اللسانيات المعرفية (Cognitive Linguistics) تقوم بتوضيح التفاعل الوثيق بين علم اللغة وعلم النفس المعرفي (cognitive psychology. وهذا مجال جديد يساعدنا في تحقيق الفهم العلمي للموضوع المشترك وهو العلاقة بين اللغة والمعرفة فإنه يرتبط

---

١. أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسرّ العربية، ص ١٥، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، (٢٠٠٠)م.

٢. ابراهيم محمود خليل، ألفاظ الألوان ودلالاتها عند العرب، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجّلد3 ، العدد2006 .

٣ الدكتور أحمد مختار عمر، اللغة واللون، دار البحوث العلمية، الكويت،١٩٨٢.

بعضها ببعض إلى حد كبير.

١ - مبدأ التعميم

يرى علماء النفس قدرة التعميم كقدرة ذهنية طبيعية وقانونا منطقيا للبشر يعني بها أخذ الصفات المشتركة بين الأشياء المفردة لجمعها في تصور واحد، عند ما يقوم العقل بالتعميم، فإنه يستخرج جوهر مفهوم على أساس تحليله من أوجه التشابه من العديد من الكائنات المنفصلة، يعتبر اللسانيون المعرفيون اللغة كبنية متحددة أو بنية مشتركة، ويستخدم العقل البشري تقنيات مختلفة لإدراك المفاهيم وتنظيمها وتحفيظها في الذهن منها:

المقولة(Categorization)

القدرات العقلية تتخيل وتدرك الأشياء ذات طبيعة مماثلة في قالب واحد، والعناصر التي تتفق عليها التصنيف قد تكون واضحة في الأحيان وقد تكون مبهمة في أحيان أخرى.

٢. التعدد الدلالي (Polysemy)

يتناول اللغويون المحدثون والقدماء التعدد الدلالي على أنه "اللفظ الواحد على أكثر من معنى واحد "ويكون بين هذه المعاني المختلفة رابطة أساسية في الحقيقة أو المجاز، ويقول ابن جني "يثبت الاشتراك اللفظي للحروف، والأسماء، والأفعال على حد سواء مثل 'مِن'، و'لا' و' إن' ونحو ذلك لم يقتصر بها على معنى واحد. لأنها حروف وقعت مشتركة.[١]

٣. التجربة المجسدة (Embodied Experience)

إن التجسيد فكرة مركزية في اللسانيات المعرفية، تعني بها أن الإنسان يدرك المفاهيم ويربط بعضها ببعض في الفضاء العقلي على طريقة التجربة الحسية

١. ابن جني، الخصائص، ص ١١٢-١١٣

الجسدية، والذهن الإنساني يملك تصورا نوعيا خلال طبيعة جسده الفيزيائي الخاصة، وأن هذه التجربة المجسدة لكونها بيئة مستمدة جزئيا من طبيعة أجسادنا ومن تنظيمنا العصبي تنتج المعرفة المجسدة، فلا نستطيع أن نتحدث إلا عما يمكننا ادراكه وتصوره. وهذا التصور الذهني يمكن توسعه إلى تصورات مختلفة، مثل: سقط زيد في حب هند، هنا كلمة "في" تدل تصورا ذهنيا ونفهمها بفضل تصور أساسي هو "الوعاء"

٤. النموذج المعرفي المؤمثل (Idealized Cognitive Model)

هذه النظرية قدمها "جورج لايكوف" لشرح كيفية فهم الكون بشكل شامل، وهذه النظرية مشتقة من نظريته عن الاستعارة والمقولة والتجربة المجسدة، يرى "لايكوف" أن الإنسان يفهم الكون الذي حوله معتمدا على نماذج مقولات عامة ومفاهيم مركبة عبر تصنيفها وتحديد عموميتها وخصوصيتها، فإن في كل مقولة مفهوم نموذجي يشتمل جميع صفات التي يبني عليها ذلك المفهوم، وهذا النموذج يسمى النموذج المعرفي المؤمثل.

٥. دلالة الأطر (Frame Semantics)

"تشارلز فيلمور"Charles J. Fillmore- الباحث الأمريكي وأستاذ اللسانيات - أسّس نظرية دلالة الأطر واهتم في أبحاثه عن تكوين المعنى في أذهان الإنسان، يرى فيلمور أن مفهوما واحدا يدرك بها الإنسان مقترن مع مفاهيم كثيرة متعلقة بها، ومصطلح الأطر-(FRAME) يعني بها: سلسلة من الخصائص النمطية التي نعبر من خلالها عن معرفتنا بالأشياء.

قد انعقدت بعض الدراسات عن تطبيق نظرية الأطر في تحليل الخطاب العربي، وخاصة في تحليل الخطابات القرآنية وهذه النظرية يساعدنا معرفة الفضاءات الذهنية المكونة في أفكار القارئ وتستخدم اظهار المعنى الكامنة، فلنشرح هذا خلال الآيات التالية:

تحليل الآية حسب إطار المنافسة	تحليل الآية حسب الإطار التجاري
والسابقون السابقون أولئك المقربون، في جنّات النعيم (سورة الو اقعة) عناصر الإطار: حياة الدنيا(الميدان)، الأعمال الخيرات(المنافسة)، أصحاب اليمين، أصحاب الشمال (المتنافسون)، يوم القيامة (الهدف) السابقون بالأعمال الخيرات يفوزون يوم القيامة بمرتبة عالية جزاءا بما فعلوا في هذه الدنيا وينالون المرتبة العليا هي القرابة إلى ربهم وأخرى من ألوان الطعام والشراب.	إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم (سورة التغابن) عناصر الإطار: المبلغ، المقرض، المقترض، الشروط، الأجل، الرد إن كل ما ينفق المؤمن من الأموال والأنفس في سبيل الله لا يضيع أبدا بل يحفظ عند الله تعالى ويردّ إلى صاحبها أضعافا مضاعفا

تهتم النظرية الأطر الدلالية عن البنية المفاهيمية التي تختلق في أذهان المتكلم والسامع حين استخدام الكلمات والتراكيب، والأطر طريقة للتعبير والتحدث عما في نفوسنا، وهناك نماذج مؤمثلة لكل هذه المفاهيم التي تلعب دورا مهما في التفكير عن العالم، ويتمثل الكلام إطرا كثيرة مختلفة نستخدمها لتنظيم الأفكار والمفاهيم، فلا يستطيع الإنسان التخيل عن الأشياء بدون تجربته المجسدة السابقة، فالكلمات "السابقون " والقرض" لا يمكن فهمهما بدون تجربة سابقة بالمنافسات والتجارية.

طبيعة الالوان الذهنية – الأبيض

على أساس هذه المبادئ المعاصرة أحاول تحليل طبيعة الألوان الذهنية، ومن السؤال الذي نستجيب في هذا البحث كيفية تداول القرآن الكريم والسنة النبوية على لون الأبيض والأسود، وما هي التمثيلات الذهنية والمصورات الإدراكية التي تشكلها

الوعي الإنسان عند استخدام هاتين الكلمتين.

وإن علم الدلالة الإدراكي يوظف في تحليل أنماط الصورة والمجازات المفهومية، فان كلمة "**أبيض**" أوما يليق بها مرتبطة بتجارب الإنسان المادية المحسوسة، وهذا الارتباط الحقيقي الطبيعي هو الكفيل في خلق التصورات الذهنية وتجسيده دلاليا ضمن وعي الإنسان، لذا أوّلا نحلل الآيات والأحاديث التي وردت فيها كلمة ′ أبيض′ أو مشتقاتها في مختلف الأحوال.

إن كلمة أبيض أوما يليق بها وردت في القرآن الكريم ١٢ مرة، وهذه الكلمات كلها إن كان حقيقيا أو مجازيا جاءت في معنيين، هما اللون الأبيض(حقيقيا) والنور، ونشرح هنا هذه الآيات حسب المفاهيم الأساسية لنظرية الدلالة الإدراكية.

"كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ" (الصّفّات -٤٩)

وفي هذه الآية "البيض" يعني بيض العش، وعناصر الأطر لهذا البيض المكنون: الصفاء، الحسن، الطهارة، شيء جميل، داخل القشر لم يمسسه أحد، ويعتبر البيض شيئا مطهرا، وهذه الطهارة والجمال موفورة في البيض المكنون باعتبار لونها الأبيض، فإن القرآن الكريم جعل هذا البيض كنموذج مؤمثل للحسن والجمال، وفي منظور هذا الأطر نفهم محاسن الحور العين، لأنّ كلاهما مرتبطة بإطار واحد وهو الإطار المكاني.

الإطار المكاني – Spatial Frame

الجنة	العش
النساء	البيض
ألوان النساء	ألوان البيض
نقاء الجسد	صفاء البيض

- وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (آل عمران ١٠٧)

هذه الآية تبيّن أحوال الفائزين في يوم القيامة وردت الكلمة "ابيضت" مجازا، لأن الابيضاض والاسوداد يكونان في جميع الجسد، ولكن التصوير هنا على شكل (الكل - الجزء)، لأن الوجه هو النموذج المؤمثل في جسد الإنسان وأول ما نراه حين اللقاء وأشرف أعضاء الجسد، والمراد ببياض الوجه هو السرور والفرح، ونفهم من ذلك أن القرآن يعبر أحوال أهل الجنة على طريق التجربة المجسدة في حياة الإنسان المادية حين يظهر في وجهه آثار البشاشة والرضاء مع إشارة خاصة بلون الأبيض لأنه لون السلامة والأمن حسب دلالة جميع اللغات العالمية الأخرى.

- كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴿سورة البقرة ١٨٧﴾

اتفق المفسرون في شرح هذه الآية على أن المراد بالخيط الأبيض هو النهار أو طلوع الفجر، والعرب تسمّى ضوء الصبح خيطا، والظلام المخطط به خيطا، وشبّه هنا الليل والنهار بالأسود والأبيض، يجيء النهار بالنور كما يجئ الخيط الأبيض بالوضوح والبيان، وكذلك في أمر الليل بصفته الظلام والإبهام كما في الخيط الأسود.

- وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢ طه﴾
- وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣ الشعراء﴾
- وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴿١٢ النمل﴾
- اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴿٣٢ القصص﴾
- وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨ الأعراف﴾

أما بالنسبة "البيضاء" التي ذكرت في سورة طه، والشّعراء، والنمل، والقصص والأعراف، فهي تدّل النور الإلاهي يخرج من يد موسى عليه السلام كآية لنبوّته، ويرى العلماء أن لون هذا النور كالثلج النقي الخالص، وكان يده تلمع وتتلألأ كقطعة من القمر، هنا استعملت ' البيضاء 'آية الرسالة والهداية من الله سبحانه وتعالى، وبالرغم أن النور غير مضمون باللون والشكل، هذه العبارة تعكس في أذهاننا الطهارة والنقاء

وفي سورة الصّافّات نرى "بيضاء لذة للشاربين " إشارة إلى الماء المشروب الذي

يعطى لأهل الجنة، والصفة ' بيضاء 'اختيرت إمّا للكأس أول لماء تعني الصفاء والنقاء، وأن اللون الأبيض الخالية من الدنس والكدر هي النموذج المؤمثل الذهني للطهارة والنظافة.

وإذا تصفّحنا الأحاديث النبويّة المتضمنة بالألوان خاصة الأبيض على منظور هذه النظريات الإدراكية سنفهم الدلالات التي توحي هذه الكلمة.

نري في بعض الأحاديث أن كلمة أبيض وردت شعارا للخير والحسن والرحمة مثلا: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: حوضي مسيرة شهر، ماءه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك[١]. وهنا استعملت اللبن نموذجا مؤمثلا للأبيض، وفي حديث أخرجه الإمام مسلم، قال حذيفة، سمعت رسول ﷺ يقول: تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأيّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأيّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين: أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مُجخّيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه.[٢] والمراد به أن الرجل إذا أنكر الفتنة يكون قلبه أبيض وإذا أشرب الفتنة يكون أسود القلب. وإذا شرحنا هذه النقطة في منظور– الاستعارة التصورية – التي جاء بها جورج لايكوف ومارك جونسون، وهناك مجالان لهذه الاستعارة هما: المجال المصدر (Source domain) والمجال الهدف (Source domain)

المجال المصدر	المجال الهدف
القلب نقي	خُلق الإنسان نقي
يملأ القلب الإيمان	يملأ في حياة الإنسان الأعمال الخيرية
يكون القلب أبيضا	يعيش حياة سعيدة

١. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث رقم ٦٢٣٧

٢. صحيح مسلم، كتاب الفتن، الرقم ١٤٤

وفي بعض الأحاديث ورد لون الأبيض مرتبطة مع جسم رسول ﷺ كما في حديث أخرجه الإمام مسلم، عن أبي الطفيل (ر) قال: كان أبيض مليح الوجه. وكذلك عن لواء رسول ﷺ كما روي أهل السنن الأربعة من حديث يحي بن آدم. وكانوا يروون اللون الأبيض شعار السلامة والأمن. وأنّ للأبيض دلالة مختلفة عند العرب قبل الإسلام مثل النّور، والوضوح، والسرور، والشرف، والكرامة، والنظافة والصفاء، دليلا على ذلك قول سبيع بن الخطيم: [1]

ومجالس بيض الوجوه أعزة حمر اللثاث كلامهم معروف

والشاعر طرفة بن العبد يفخر لأن ندماءه كرام الناس، لأنهم بيض النجوم وذلك بقوله: ندماي بيض كالنجوم وقينة تروح إلينا بين برد ومسجد[2]

يعتبر "الحمامة البيضاء " "والدخان الأبيض" علامة شائعة للسلام والهدوء في الثقافات المختلفة بما أن لهذا اللون ارتباط ايجابي وثيق مع عاطفة الإنسان ووجدانه، فلا شك أنّ الدراسات المعرفية تساعدنا في فهم هذا الارتباط اللغوي مع التصورات الذهنية وعلاقة التعبيرات اللغوية مع حياة الإنسان.

طبيعة الألوان الذهنية – الأسود

ورد اللون ' الأسود' أو ما يليق به في القرآن الكريم سبع مرّات وفي معان شتى حسب السياق والكلمة التي تتعلق به، وهذه الآيات:

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴿١٨٧ البقرة)

[1]. الأصمعي، الأصمعيات صفحة رقم ٢٣٢

[2] القرشي، جمهرة أشعار العرب،١- ٤٣٦

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿آلعمران١٠٦﴾

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧ فاطر﴾

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّا وَهُو كَظِيمٌ ﴿٥٨ النحل﴾

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُو كَظِيمٌ ﴿١٧ الزخرف﴾

تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴿٦٠ الزمر﴾

نفهم من هذه الآيات على أن الأسود استعملت في القرآن الكريم على ثلاثة معاني:

الأوّل - اللون الأسود الحقيقي

الثاني – الحزن والكآبة والغمّ

الثالث – الليل والظلام

فالكلمة - أسود – ذكرت في الآيات حقيقيا كلون من الألوان الطبيعية، ولكنه إذا أتى في صورة التشبيه أو الاستعارة أوفي صور بلاغية أخرى يتعدى إلا دلالات أخرى، وفي هذا الجزء نعالج العمليات الذهنية التي تسير إلى خلق هذه التصورات.

ويبين من هذه الآيات الكريمة أن الكفّار يأتون يوم القيامة مسود الوجه، ومن أسباب اسوداد وجوههم الكفر بعد الإيمان وذلك في قوله: (فأمّا الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم) والكذب على الله وذلك بقوله (ويوم القيامة ترى اللذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة). وهذه الدلالات كلّها على صورة استعارية، لأن اسوداد الوجوه علامة الفشل والخسارة. ونناقش هنا كيف تشكل هذه التصورات في مجال فكرتنا.

فإن هناك مجالان تصوّران الاستعارة كما ذكرنا من قبل هما: مجال المصدر ومجال الهدف، فمجال الهدف غالبا ما يكون مفاهيم مجردة مثل (الخوف، والهمّ، والحزن، والسعادة وإلخ) فيتم ذلك عن طريق مجال تصوّري آخر هو مجال المصدر الذي يتولى تلك المهمة بواسطة توظيف عناصره، فالاستعارة التصورية تقوم على أساس من الترابطات الذهنية بين المجالين – مجال المصدر ومجال الهدف، فهذا

الجدول التالي سيوضح ذلك.

المجال المصدر– اسوداد الوجوه	المجال الهدف – الندامة والكآبة
الوجه	حالة الإنسان
ملامح الوجه	يشعر الإنسان الصعوبات والأزمات
عندما يفقد الآمال يتبدّل بشاشته جهامة	يضعف الإنسان جسديا
يظهر في الوجه آثار الفشل والخسارة	يتغير أحوال الإنسان جسديا وروحيا
يتغير الوجه	يحزن ويبكي

وليس هذا التصور الاستعاري منبثقة إلاّ من تجارب الإنسان المادية الجسدية، فإن الإنسان يشكو ويؤلم ولكن الانعكاسات تظهر في وجهه وسلوكه وفي نشاطاته ويعبّر هذه الانفعالات بلغة متصلة بالمظاهر الطبيعي مثل سواد الليل وسواد الصخرة كما جاء في "الخيط الأبيض من الخيط الأسود"، ومعني الخيط الأبيض النهار، بينما يشير الخيط الأسود إلى الليل حيث يتميّز بياض النهار عن سواد الليل، وهنا أيضا الربط الاستعاري بين المجال المصدر (الخيط الأسود) والمجال الهدف (سواد الليل).

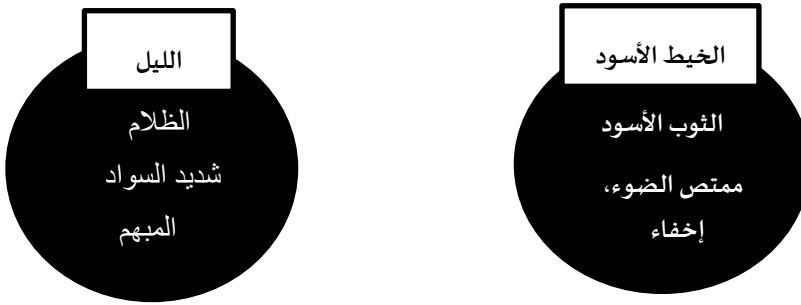

فنجد هنا المشابهة بين الإطارين، كلاهما يدلّ معنى الغموض والظلام، فنرى أن هناك الأطر العميقة بين هذين المفهومين هو اللون الأسود الطبيعي

نرى في الأحاديث الشريفة عبارات كثيرة متعلّقة باللون الأسود أخرجه كثير من العلماء الكبار مثل الإمام البخاري ومسلم وابن ماجة والنسائي وغيرهم، ورد الحديث في صحيح الجامع الألباني كلمة سوداء استعاريا للمعصية والظلم، قال رسول ﷺ أن

العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء. وفي حديث رواه ابن عبّاس (ر) قال، قال رسول ﷺ نزل الحجر الأسود من الجنّة وهو أشدّ بياضا من اللبن، فسوّدته خطا بني آدم [1] رواه الترمذي وأحمد وصحّحّه ابن حزيمة. وهذا الحديث يبيّن أنّ الحجر الأسود صار مسودّة بذنوب بني آدم اللذين يمسحون الحجر الأسود، وهنا اللبن مأخوذة كالنموذج المؤمثل للون الأبيض لبيان طهارته وصفاءه، والأسود نموذجا للذنوب الذي جمع على الحجر حتى صار أسود اللون. هذا التصوير شبيه للتصوير السابق الذي ذكر فيه أن القلب يصير مسودّة بالذنوب والمعاصي. وفي حديث رواه عبد الله بن مغفل قال قال رسول الله ﷺ "لولا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها كلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم" [2]،فلم يأمر النبي ﷺ بقتل جميع الكلاب، خشية إبادة جنسها كلية، بل أمر بقتل الأسود منها، لأن الأسود البهيم منها أضرها وأعقرها، فقد وصفه النبي ﷺ بأنّه شيطان فقال: عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين، فإنه شيطان، وقال أيضا: الكلب الأسود شيطان.[3]

والعرب يرتبطون اللون الأسود بالقبح واللوم والحزن منذ قديم الزمان، وهذا ما نرى في الشعر الجاهلي، كما جاء في قصيدة حسان بن ثابت في رثاء النبي ﷺ [4]

ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا سودا وجوههم كلون الإثمد

أي أن هذه الفجيعة والمصيبة الكبرى جعلت وجوههم البيضاء المشرقة مسودة، وقال عنترة يصف فرسانه:

---

[1]. رواه الترمذي، (٣\٢٢٦)، (ح ٨٧٧)، وقال (حسن صحيح). وابن حزيمة في (صحيحه) ٤\٢١٩، (ح ٢٧٣٣). وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي)، (١\٤٥١)، (ح ٨٧٧).

[2]. رواه الترمذي (١٤٨٦)، وصححه، وأبو داود (٢٨٤٥)، والنسائي (٤٢٨٠)، وابن ماجه (٣٢٠٥) وصححه الألباني في "صحيح الترمذي".

[3]. رواه مسلم (١٥٧٢)

[4]. شرح ديوان حسّان، ص- ١٥١

كم من فتى فيهم أخي ثقة حرّا أغرّ كغرّة الرّئم

ليسوا كأقوام علمتهم سود الوجوه كمعدن البرم

وليس قصدنا تحليل دلالات الأسود في الشعر الجاهلي بل نأخذها استدلالا للتعبيرات القرآن والحديث فحسب، وهناك الكثير من الأحاديث والعبارات اللغوية من الأدب الكلاسيكي المتضمنة هذه المفاهيم اللونية كما نرى في المعاملات اللغوية الحديثة حيث نتركها للباحثين الراغبين فيها خوفا من الملل والتكرار.

خاتمة

يظهر بهذه المناقشة أن مصطلحات اللون لديها امكانيات كبيرة لتطوير معاني مختلفة ممتدة، يمكن تطوير هذه المعاني الامتدادية إما من خلال المجاز والاستعارة أومن خلال الكناية، هذه الدراسة معتمدة على مفاهيم الدلالات المعرفية الحديثة لتحليل التصورات الذهنية التي تتشكل في الفكر الإنساني عند تداول الألوان في الخطابات النصية خاصة الأبيض والأسود. ولعلّ هذه الدراسة الموجزة قد أفضت إلى نتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

ا. يمكن استخدام المفاهيم الأساسية للدلالة المعرفية أداة فعّالة وموثوقة لتحليل الخطاب اللغوي المنطوق والمكتوب.

ب. قد استخدم القرآن الكريم والحديث النبوي اللون الأبيض والأسود على صورة حقيقي ومجازي.

ج. ينتج الأبيض والأسود تصوّرات ذهنية استعارية حسب الإطار المعرفي.

د. يتخذ كلمة "الأبيض" اللون الأبيض واللبن والنور كنموذج مؤمثل حين يتخذ الأسود الليل واللون الأسود كنموذج مؤمثل أيضا.

هـ. إن اللون الأبيض غني بإطار الصفاء والطهارة، والنظافة والسعادة والخير.

و. إن اللون الأسود مرتبطة بإطار الليل والكآبة والحزن والشرّ.

ز. إن اللون الأبيض والأسود في اللغة العربية ليسا مختلفين في منظماتهما التصويرية من اللغات العالمية الأخرى

المراجع

١. أماني جمال عبد الناصر/خالد البيك، دلالة الألوان في شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الجامعة الإسلامية، غزّة

٢. ابن جني، الخصائص، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٣

٣. جورج لايكوف ومارك جونسن، الاستعارة التي نحيا بها، ترجمة (عبد المجيد جحفة)، دار توبقال للنشر، (١٩٩٦)

٤. الجلال السيوطي، الجامع الصغير، المكتبة التجارية، مكة المكرمة،١٩٩٤

٥. الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠١٠

٦. ابن كثير، البداية والنهاية –الجزء الرابع – مكتبة المعارف، بيروت،١٩٩٠.

٧. الأصمعي، الأصمعيات، دار المعارف، مصر،٢٠٠٩.

٨. القرشي، جمهرة أشعار العرب، نهضة مصر،١٩٨١.

٩. الألباني، أبوعبد الرجمان، صحيح الجامع الألباني، المكتب الإسلامي،١٩٨٨

١٠. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، صحيح الترمذي، مكتبة المعارف،١٩٩٨م

١١. إبراهيم محمود خليل، ألفاظ الألوان ودلالاتها عند العرب، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد٣٣، العدد ٢٠٠٦م

١٢. عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان حسان، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٢٩.

١٣. حمدو طمّاس، ديوان عنترة، دار المعارف، بيروت،١٩٩٠.

14. Johnson,M.(1987),The Body in the Mind:The bodily Basis of meaning Integration and Reason ,The University of Chicago Press

15. Lakoff,George (1987),Women,Fire,and Dangerous Things:What Categories Reveals about the Mind ,The University of Chicago Press

16. Fillmore,C.J.,and Baker,C.:(2009) A Frames Approach to Semantic Analysis ,The Oxford Handbook of Linguistic Analysis,Page313-340,.Oxford University Press.